(١)

القلب هو الأصل

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ -وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ-: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)]. متَّفق عليه.

يعدُّ هذا الحديث أصلًا عظيمًا في باب إصلاح القلوب، وأنَّ صلاح الجوارح بصلاحه وفسادها بفساده.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الجملة: القلب هو الأصل، كما قال أبو هريرة: «القلب ملك الأعضاء والأعضاء جنوده؛ فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده». وهذا كما في حديث النُّعمان بن بشير المتَّفق عليه؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدَ؛ أَلَا وَهِيَ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الْقَلْبُ»[(١)].

فصلاحُه وفساده يستلزم صلاحَ الجسد وفسادَه؛ فيكون هذا ممَّا أبداه لا ممَّا أخفاه.

وكلُّ ما أوجبه الله على العباد لا بُدَّ أن يجب على القلب؛ فإنَّه الأصل، وإن وجب على غيره تبعًا فالعبد المأمور المنهيُّ إنَّما يعلم بالأمر والنَّهي قلبه وإنَّما يقصد بالطَّاعة والامتثال القلب والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به؛ كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أوَّل المعصية منه؛ بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك؛ ولهذا قال في حقِّ الشَّقِيِّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة:٣١-٣٢] الآيات، وقال في حقِّ السُّعداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] في غير موضع.

والمأمور نوعان: نوع هو عمل ظاهر على الجوارح، وهذا لا يكون إلَّا بعلم القلب وإرادته. فالقلب هو الأصل فيه؛ كالوضوء، والاغتسال، وكأفعال الصَّلاة مِنَ القيام والرُّكوع والسُّجود، وأفعالِ الحجِّ مِنَ الوقوف والطَّواف، وإن كانت أقوالًا فالقلب أخصُّ بها؛ فلا بُدَّ أن يعلم القلب وجود

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ما يقوله أو بما يقول ويقصده»[(١)].

فتبيَّن بهذا أنَّ القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال:

* فما أمر الله به مِنَ الأفعال الظَّاهرة لا بُدَّ فيها من معرفة القلب وقصده.

* وكذلك ما أمر به مِنَ الأقوال لا بُدَّ فيها من معرفة القلب وقصده.

وبهذا أيضًا يعلم أنَّ القلب إذا عمر بالإيمان بالله وحُبِّه وتعظيمه وخوفه ورجائه والتَّوكُّل عليه وإخلاص الدِّين له طابت الجوارح وصلحت، بل لا يَتِمُّ شيء مِنَ المأمور به ظاهرًا إلَّا بها؛ وإلَّا فلو عمل أعمالًا ظاهرة بدون هذه كان منافقًا، ثمَّ هي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالًا ظاهرة توافقها في الزَّكاء والاستقامة.

فمعرفة أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرِّعة عليها، وهي موطن نظر الرَّبِّ، كما روى مسلم في صحيحه عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»[(٢)]. وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ.

وروى مسلم وأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٣ - ١١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

«**التَّقْوَى هَهُنَا؛ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»(١).

فالقلوب هي الأساس، فإذا استقامت على تقوى الله جَلَّوَعَلَا حقًّا وصدقًا؛ استقامت الجوارح كلُّها عملًا بطاعة الله وطلبًا لنيل رضاه جلَّ في علاه.

وفي المسند عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ**»(٢).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: «والمراد باستقامة إيمانه: استقامةُ أعمال جوارحه؛ فإنَّ أعمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلَّا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أنْ يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ الله، ومحبَّة طاعته، وكراهة معصيته.

وقال الحسن لرجل: «داوِ قلبكَ؛ فإنَّ حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم»(٣)، يعني: أنَّ مراده منهم ومطلوبه صلاحُ قلوبهم، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ وعظمتُه ومحبَّتُه وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤهُ والتَّوكُّلُ عليهِ، وتمتلئَ مِنْ ذَلِكَ، وهذا هوَ حقيقةُ التَّوحيد، وهو معنى: «**لا إله إلَّا الله**»، فلا صلاحَ للقلوب حتَّى يكونَ إلهُها الَّذِي تألَهُه

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧).

(٢) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٨٤١).

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في التَّواضع والخمول (٢٤٠).

وتعرفه وتحبُّه وتخشاه هوَ الله وحده لا شريكَ لهُ، ولو كانَ في السَّماوات والأرض إله يُؤَلَّه سوى الله؛ لفسدت بذلك السَّماوات والأرض، كما قالَ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

فعُلم بذلك أنَّه لا صلاحَ للعالَم العلويِّ والسُّفلِيِّ معًا حتَّى تكونَ حركاتُ قلوب أهلها كلُّها لله، وحركاتُ الجسدِ تابعةٌ لحركةِ القلب وإرادته، فإنْ كانت حركتُه وإرادتُه لله وحدَه؛ فقد صَلَحَ وصَلَحَتْ حركاتُ الجسدِ كلِّه، وإنْ كانت حركةُ القلب وإراداته لغيرِ الله تعالى؛ فسدَ وفسدت حركاتُ الجسد بحسب فسادِ حركة القلب»[(١)].

وفي السُّنن عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، وَأَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»[(٢)]. ومعنى هذا أنَّ حركات القلب والجوارح إذا كانت كلُّها لله فقد كَمُلَ إيمانُ العبد بذلك ظاهرًا وباطنًا، ويلزمُ من صلاح حركات القلب صلاحُ حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلَّا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعثِ الجوارحُ إلَّا فيما يُريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكَفَّتْ عمَّا يكرهه، وعمَّا يخشى أنْ يكونَ ممَّا

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

يكرهه وإنْ لم يتيقَّن ذلك»[(١)].

ولهذا فإنَّ أمر استقامة القلب أمرٌ عظيم؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس رُبَّمَا يُعْنَى باستقامة الظَّاهر ويغفل عن إقامة باطنه على الطَّاعة وحُسن الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبعد بالقلب عن أدواء القلوب وأمراضها الَّتِي تبعده عَنِ الاستقامة.

والقلوب تتسلَّل إليها أدواءٌ وأسقامٌ وأمراضٌ تُضْعِف ما فيها من إيمان وتُنقص ما فيها من دين وطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا فإنَّ مِن الاستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحرص المرء على مداواة القلوب والنُّفوس، والمجاهدة في البعد بها عَنِ الأمراض والأسقام الَّتِي تصيبها فتُسقِمها وتمرضها، فكما أنَّ الأبدان تمرض فإنَّ القلوب تمرض، بل مرضها أشدُّ من مرض البدن وأخطر.

ومن أعظم ما ينبغي أن يُعْنَى به تجاه القلب: العناية بسلامته من هذه الأمراض والأسقام، فهذا الَّذِي ينفع العبد النَّفع العظيم يوم يلقى الله ويقف بين يديه سبحانه، قال الله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السَّليم: هو القلب الَّذِي سلِم مِنَ الشِّرك والشَّكِّ، وسلِم من كُلِّ

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٢).

أمرٍ يُسخط الله، وسلِم مِنَ الإصرار على البدع والمعاصي، ويلزم من هذه السَّلامة من هذه الأشياء الاتِّصاف بأضدادها مِنَ الإخلاص لله، واليقين، والإقبال على طاعة الله، ومحبَّة الله جَلَّوَعَلَا، وتعظيمه وتعظيم شرعه؛ فإنَّ القلب إذا كان متَّصفًا بهذه الأشياء سليمًا من أضدادها كان بذلك قلبًا سليمًا له النَّجاة يوم القيامة والفوز بالدَّرجات العلا يوم يلقى الله سبحانه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اختلفت عبارات النَّاس في معنى القلب السَّليم، والأمر الجامع لذلك: أنَّه الَّذِي قد سلم من كُلِّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كُلِّ شُبْهة تعارض خبره، فسلم من عبوديَّة ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبَّة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتَّوكُّل عليه والإنابة إليه والذُّلِّ له وإيثار مرضاته في كُلِّ حال، والتَّباعد من سخطه بكُلِّ طريق، وهذا هو حقيقة العبوديَّة الَّتِي لا تصلح إلَّا لله وحده.

فالقلب السَّليم: هو الَّذِي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديَّته لله تعالى: إرادة، ومحبَّة، وتوكُّلًا، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاء.

وخلص عمله لله؛ فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتَّى يسلم مِنَ الانقياد والتَّحكيم لكُلِّ مَن عدا رسوله ﷺ؛ **فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على**

الانتمام والاقتداء به وحده دون كلِّ أحد في الأقوال والأعمال:

* من أقوال القلب، وهي العقائد.

* وأقوال اللِّسان، وهي الخبر عمَّا في القلب.

* وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبَّة والكراهة وتوابعها.

* وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كلِّه دقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلا يتقدَّم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، أي: لا تقولوا حتَّى يقول ولا تفعلوا حتَّى يأمر.

قال بعض السَّلف: ما من فِعْلَة وإن صغرت إلَّا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأوَّل: سؤال عن عِلَّة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظٌّ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدُّنيا في محبَّة المدح مِنَ النَّاس، أو خوف ذمِّهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحقِّ العبوديَّة وطلب التَّودُّد والتَّقرُّب إلى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحلُّ هذا السُّؤال: أنَّه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم

فعلته لحظِّك وهواك؟

والثَّاني: سؤال عن متابعة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ذلك التَّعبُّد، أي: هل كان ذلك العمل ممَّا شَرَعْتُه لك على لسان رسولي أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأوَّل: سؤال عَنِ الإخلاص، **والثَّاني:** عَنِ المتابعة؛ فإنَّ الله سبحانه لا يقبل عملًا إلَّا بهما.

فطريق التَّخلُّص مِنَ السُّؤال الأوَّل: بتجريد الإخلاص.

وطريق التَّخلُّص مِنَ السُّؤال الثَّاني: بتحقيق المتابعة.

وسلامةِ القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتِّباع.

فهذا حقيقة سلامة القلب الَّذِي ضُمِنَت له النَّجاة والسَّعادة»[(١)].

وللقلب السَّليم علامات تدلُّ عليه وعلى سلامته ونقائه وزكائه:

ومن هذه العلامات: أن يكون قلبًا مترحِّلًا عَنِ الدُّنيا متجافيًا عنها غير مغترٍ بها، عالم بحقيقة حالها وأنَّها دار الفناء والزَّوال وأنَّها مرتحلة وليست باقية، كما قال عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا،

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٠ - ١٢).

فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَل»[١].

ومن علامات القلب السَّليم: أن تكون همَّته واحدة، وهي نيل رضا الله والبعد عن مساخطه جلَّ في علاه.

ومن علامات القلب السَّليم: جدُّه ومجاهدته للبعد عَنِ المعاصي والآثام والبدع وفعل الحرام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومن علاماته: العناية بتصحيح العمل أكثر مِنَ العناية بالعمل نفسه؛ إخلاصًا لله وصدقًا مع الله جَلَّوَعَلَا ونصحًا في عبادة الله واستشعارًا لمِنَّة الله عليه واتهامًا للنَّفس بالتَّقصير في جنب الله ومجاهدةً لها في طاعة الله.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن معتنيًا بقلبه عاملًا على إصلاحه مجتهدًا في تزكيته وتنقيته، ومِنَ الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[٢].

وجاء في الحديث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لشدَّاد بن أوس: «**إِذَا اكْتَنَزَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ فَاكْتَنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي**

---

(١) رواه البخاريُّ -تعليقًا- في: «باب في الأمل وطوله»، ووصله ابن حجر في تغليق التَّعليق (٥/ ١٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»(١).

وهو حديث صحيح اشتمل على جماع الخير وأبواب البِرِّ وجماع الفضيلة، والنَّبِيُّ ﷺ أكدَّ تأكيدًا عظيمًا على العناية بهذا الدُّعاء والعناية بتحقيق ما فيه مِنَ المطالب العظيمة والمقاصد الجليلة، وبخاصَّة العناية بسلامة القلب؛ وذلك بتنقيته وتزكيته وتطهيره من كُلِّ أمرٍ يُسخط الله، ولاسِيَّما الشِّرك بالله، أو الشَّكُّ في دين الله، أو الإصرار على البدع والمعاصي، أو نحو ذلك مِنَ الآفات الَّتِي تعرِض للقلوب وتُضِرُّ بها إضرارًا بالغًا.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقنا أجمعين لكُلِّ خير، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيب.

---

(١) رواه ابن حبَّان في صحيحه (٩٣٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٢٢٨).